أخلاق المؤمنين

القناعة



تأليف
أ د/علـى راشـد

رسوم
ماهر عبد القادر

المجد

رقم الإيداع: 2013/20635
المجدللنشر والتوزيع: 01006372799

اجْتَمَعَ الْأُسْتَاذُ مَعَ تِلْمِيذِهِ وَتِلْمِيذَتِهِ
يَوْمًا. قَالَ التِّلْمِيذُ:
- تُوجَدُ لَوْحَةٌ فِي فِنَاءِ مَدْرَسَتِنَا
مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا:
"الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى"،
وَأَنَا لَا أَفْهَمُ مَعْنَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ.

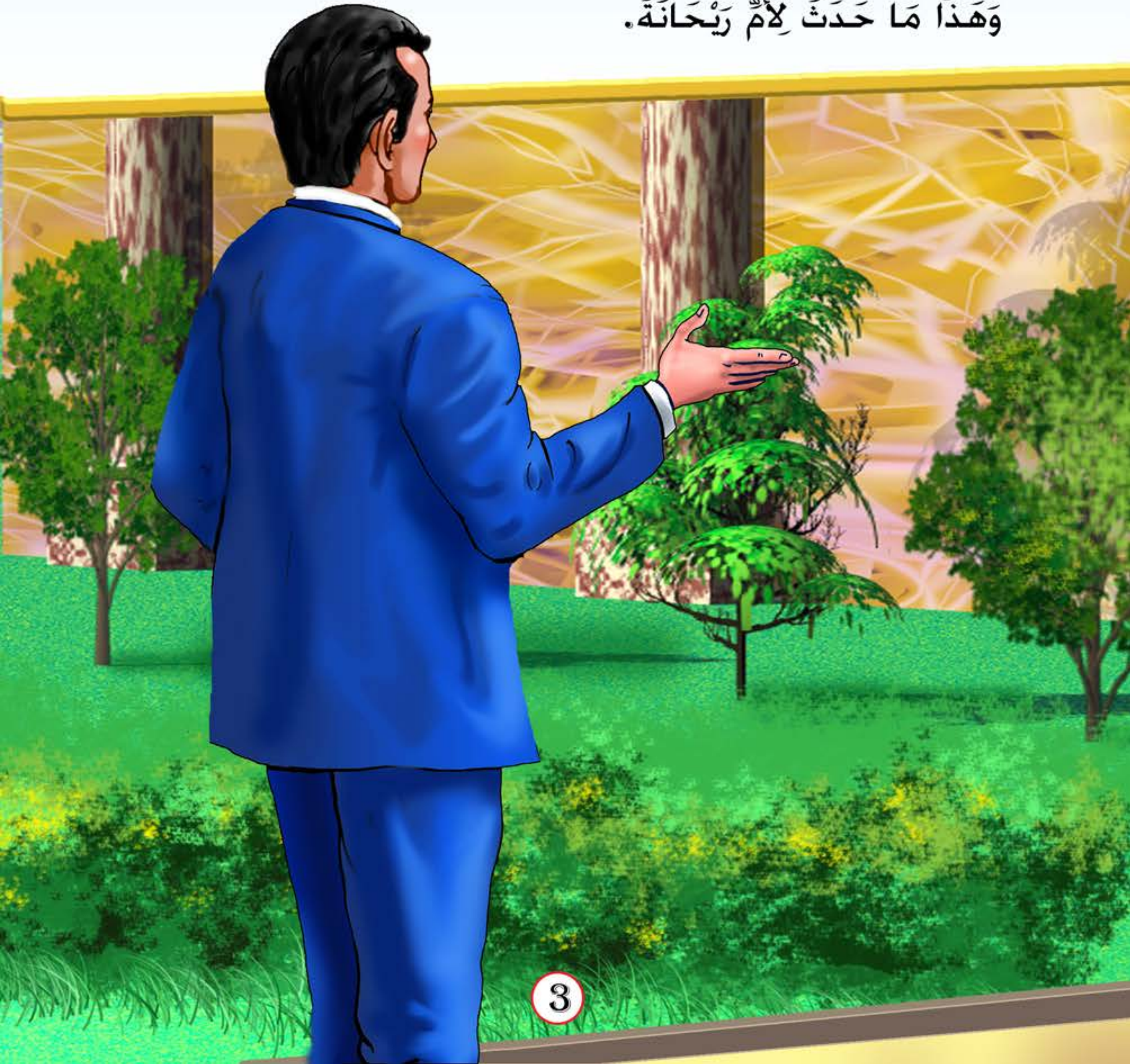


أَجَابَ الْأُسْتَاذُ: الْقَنَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ الرِّضَا بِمَا قَسَمَهُ اللّٰه لَكَ مِنْ رِزْقٍ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا. وَعَدَمُ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا فِي يَدِ الآخَرِينَ مِنْ نِعَمٍ وَأَمْوَالٍ وَمُمْتَلَكَاتٍ.

قَالَتِ التِّلْمِيذَةُ: وَلَكِنَّنِي يَا أُسْتَاذِي أُحِبُّ أَنْ أَمْتَلِكَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً. وَأَيْنَ هُوَ هَذَا الْكَنْزُ؟

رَدَّ الْأُسْتَاذُ: الْكَنْزُ يَا بُنَيَّتِى يَكْمُنُ فِى سَعَادَةِ النَّفْسِ وَهُدُوءِ الْبَالِ، وَالشُّعُورِ بِالأَمْنِ وَالسَّكِينَةِ وَرِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَهَذَا مَا حَدَثَ لِأُمِّ رَيْحَانَةَ.



أُمُّ رَيْحَانَةَ هَذِهِ أَرْمَلَةٌ مَاتَ زَوْجُهَا وَتَرَكَهَا تَعِيشُ بِمُفْرَدِهَا مَعَ ابْنَتِهَا الْوَحِيدَةِ فِي كُوخٍ بَسِيطٍ فِي مِنْطَقَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْبَلْدَةِ، وَرَغْمَ بَسَاطَةِ حَيَاةِ الْأُمِّ وَابْنَتِهَا،



وَقِلَّةِ الطَّعَامِ وَالْمَلْبَسِ، إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتَا
تَحْمَدَانِ رَبَّهُمَا عَلَى مَا هُمَا فِيهِ مِنْ نِعَمٍ
لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى،



وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ اقْتَرَبَ مِنْ كُوخِ أُمِّ رَيْحَانَةَ أَمِيرُ الْبَلَدِ عَلَى فَرَسِهِ وَبِصُحْبَتِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ، وَكَانُوا فِي رِحْلَةِ صَيْدٍ طَوِيلَةٍ وَفَرَغَ مَا مَعَهُمْ مِنْ مَاءٍ، وَبَلَغَ الْعَطَشُ مِنْهُمْ مَدَاهُ، فَإِذَا بِجِوَارِ الْكُوخِ وَتَحْتَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ إِنَاءٌ فَخَّارِيٌّ كَبِيرٌ مَمْلُوءٌ بِالْمَاءِ، فَاسْتَأْذَنَ الْأَمِيرُ مِنْ صَاحِبَةِ الْكُوخِ - دُونَ أَنْ تَعْرِفَهُ - أَنْ يَشْرَبَ هُوَ وَصَحْبُهُ مِنَ الْمَاءِ، فَأَذِنَتْ لَهُ.





وَعِنْدَمَا شَرِبَ الْأَمِيرُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ الْعَذْبِ الْبَارِدِ وَارْتَوَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ لَهُمُ الْأَمِيرُ: هَذَا أَعْذَبُ مَاءٍ شَرِبْتُهُ فِي حَيَاتِي، وَأَخْرَجَ الْأَمِيرُ صُرَّةً مِنَ النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ وَأَلْقَاهَا قَرِيبًا مِنْ بَابِ كُوخِ أُمِّ رَيْحَانَةَ .. وَقَالَ:

- الَّذِى يُحِبُّنِي يَفْعَلُ مَا فَعَلْتُ، فَإِذَا بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الْأَمِيرِ يُخْرِجُ صُرَّةً مِنَ النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ وَيُلْقِيهَا نَاحِيَةَ بَابِ الْكُوخِ.





وَرَحَلَ الْأَمِيرُ وَصَحْبُهُ وَخَرَجَتْ أُمُّ رَيْحَانَةَ وَابْنَتُهَا تَجْمَعَانِ هَذِهِ النُّقُودَ الذَّهَبِيَّةِ، وَالْفَتَاةِ رَيْحَانَةُ تَضْحَكُ فَرِحَةً مِنْ هَذَا الْعَطَاءِ، وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَتْ نَاحِيَةَ أُمِّهَا وَجَدَتْهَا تَبْكِي، فَقَالَتْ رَيْحَانَةُ لِأُمِّهَا فِي دَهْشَةٍ: لِمَاذَا تَبْكِينَ يَا أُمَّاه، وَنَحْنُ بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ أَصْبَحْنَا مِنَ الْأَثْرِيَاءِ؟

أَجَابَتِ الْأُمُّ: يَا رَيْحَانَةَ عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَيْنَا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللّٰهِ أَعْطَانَا كُلَّ هَذَا الْمَالِ، فَمَا بَالُكِ لَوْ نَظَرَ إِلَيْنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.



قَالَتِ التِّلْمِيذَةُ: حِكَايَةٌ جَمِيلَةٌ عَن قِيمَةَ الْقَنَاعَةِ ..
تَسَاءَلَ التِّلْمِيذُ: وَ مَا عَكْسُ قِيمَةِ الْقَنَاعَةِ؟
رَدَّ الْأَسْتَاذُ: الطَّمَعُ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.. فَالشَّخْصُ الَّذِى أُصِيبَ بِهَذِهِ الرَّذِيلَةِ لا يَكْتَفِي أَبَدًا مَهْمَا كَانَ يَمْتَلِكُ. فَإِذَا كَانَ لَدَيْهِ جَبَلٌ مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنَّى جَبَلَيْن. فَإِيَّاكُمْ يَا أَبْنَائِى مِنْ آفَةِ الطَّمَعِ وَإِلا سَيَحْدُثُ لَكُمْ مَا حَدَثَ لِلْمَدْعُو "نَاصِحٍ".



"نَاصِحٌ" هَذَا كَانَ مُزَارِعًا، وَعِنْدَهُ حَدِيقَةٌ كَبِيرَةٌ فِيهَا كُلُّ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ وَالْخُضَارِ وَالزُّهُورِ بَدِيعَةِ الْأَلْوَانِ، وَكَانَ بِجِوَارِ حَدِيقَةِ (نَاصِحٍ) حَدِيقَةٌ لِجَارٍ لَهُ لَا يَفْصِلُهُمَا سِوَى قِطْعَةٍ ضَخمَة مِنَ الْحِجَارَةِ . وَفِى أَحَدِ الْأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَ (نَاصِحٌ) يَسِيرُ فِي حَدِيقَتِهِ خَطَرَ عَلَى بَالِهِ أَنْ يُحَرِّكَ هَذَا الْحَجَرَ الثَّقِيلَ لِبِضْعَةِ أَمْتَارٍ دَاخِلَ حَدِيقَةِ الْجَارِ، طَمَعاً فى الْمَزِيد..



وَبِالْفِعْلِ أَخَذَ فِي إِحْدَى اللَيَالِي سَاقًا طَوِيلَةً مِنَ الْحَدِيدِ ، وَاتَّجَهَ نَاحِيَةَ هَذَا الْحَجَرِ الثَّقِيلِ، وَأَخَذَ يَبْذُلُ كُلَّ جَهْدِهِ حَتَّى تَحَرَّكَ الْحَجَرُ بِالْفِعْلِ بِضْعَةَ أَمْتَارٍ، وَعَادَ "نَاصِحٌ" إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ نَفْسَهُ، وَأَنَّ حُلْمَهُ تَحَقَّقَ.



وَفِي صَبَاحِ الْيَومِ التَّالِي ذَهَبَ إِلَى حَدِيقَتِهِ فَشَاهَدَ تِلْكَ الزِّيَادَةَ الْوَاضِحَةَ لِأَرْضِ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ، وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُ الأَشْجَارَ الَّتِى امْتَلَكَهَا، وَمِنْهَا شَجَرَةُ تُفَّاحٍ رَائِعَةٌ فَابْتَسَمَ "نَاصِحٌ" فِي خُبْثٍ وَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَقَدْ قُمْتُ بِعَمَلٍ رَائِعٍ، وَسَتَكُونُ مُكَافَأَتُكَ تِلْكَ التُّفَّاحَةَ الْحَمْرَاءَ الْجَمِيلَةَ الَّتِى أَعْلَى شَجَرَةِ التُّفَّاحِ.



وَبِالْفِعْلِ أَحْضَرَ "نَاصِحٌ" سُلَّمًا خَشَبِيًّا، وَصَعَدَ عَلَيْهِ وَحَاوَلَ الإِمْسَاكَ بِالتُّفَّاحَةِ الْحَمْرَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ فَقَدَ تَوَازُنَهُ فَوَقعَ مِنْ أَعْلَى السُّلَّمِ الْخَشَبِيِّ عَلَى الْأَرْضِ، وَارْتَطَمَ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ الدِّمَاءُ وَتَأَلَّمَ كَثِيرًا وَغابَ عَنِ الْوَعْيِ، وَعِنْدَمَا حَمَلُوهُ إِلَى طَبِيبٍ لِعَمَلِ الإِسْعَافَاتِ اللازِمَةِ، قَالَ الطَّبِيبُ: لَوْلا وُجُودُ هَذَا الْحَجَرِ اللعِينِ فِي مَكَانِهِ هَذَا، مَا كَانَتْ هَذِهِ الإِصَابَةُ الْخَطِيرَةُ، فَبَكَى "نَاصِحٌ" عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْمَقُولَةَ، وَعَرَفَ أَنَّهُ انْتِقَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فِعْلَتِهِ.



وَرَفَعَ الأسْتَاذُ يَدَيْهِ يَدْعُو رَبَّهُ قائِلًا: اللَّهُمَّ أَرْضِنَا مِنَ الْعَيْشِ بِمَا قَسَمْتَهُ لَنَا.. آمِينَ.. آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

